﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ [القمر: 33 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

قصّةُ قومِ لوطٍ، وتناسُبها مع مَطلَع السّورة

لمّا كانَتِ الآياتُ السّابقةُ بمقاطعِها المُتنوِّعة قد سلكَت مَسلكَ التَّحذير والتَّهديد والوَعيد لِمَن خالفَ الحقَّ المُبينَ، وابْتُدِئَ بقصَّةِ قوم نوحٍ فعادٍ فثمودَ، ناسبَ أن تكونَ قصَّةُ قومِ لوطٍ ﷺ رابعةَ تلكَ الأربعِ؛ ليزدادَ رَدعُ المُكذِّبين المُتهاوِنين، ويقعَ منهُم تنوُّعُ أسبابِ العذابِ مَوقِعَ الوعظِ الشَّديد، كما أنَّ قصَّةَ قومِ لوطٍ ﷺ مِن أعظمِ ما وقَعَ بعد ثمودَ ممّا تعرِفُهُ العَربُ من أخبارِ الأُمَمِ البائدة وآثارِهم الباقية، فمَرعيٌّ فيها التَّناسُبُ الزَّمانيُّ، معَ ما في قصَّتِهم من صورةٍ تُشبهُ أهوالَ السّاعةِ؛ بتبديلِ الأرضِ غيرَ الأرض، فهي الصّورةُ المُناسبةُ لِمَطلَعِ السّورة، فجاءَتِ القصَّةُ في تسلسُلٍ بيانيٍّ يُصَعِّدُ المَوعظةَ بقومٍ إلى آخرين أشدَّ بأسًا منهم؛ تحريكًا للقلوب، وتنبيهًا للعقول.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَاصِبًا﴾: الحاءُ والصّادُ والباءُ أصلٌ واحدٌ، وهو جنسٌ من أجزاءِ الأرضِ، ثمَّ يُشتَقُّ منه، وهو الحَصْباءُ، وذلكَ جِنسٌ مِنَ الحَصى[1]. والحَصْبُ: رَمْيُكَ بالحَصْباء؛ أي: صِغار الحَصَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصب).

أو كِبارها[1]. يُقالُ: تَحاصَبَ القَوم إذا تَقاذَفوا بالحصى[2]. ويُقال للرّيح الَّتي تَحمِل التُّرابَ والحَصى حاصِبٌ، وللسَّحابِ يَرمي بالبَرَد والثَّلج حاصِبٌ؛ لأنَّهُ يَرمي بهما رَمْيًا[3]، والمقصود بالحاصب في الآية: الرّيحُ الَّتي تَحْصِبُ؛ أي: تَرمي بالحَصباءِ تَرفَعُها مِنَ الأرضِ لِقوَّتِها[4].

2) ﴿بِسَحَرٍ﴾: أصل (سحر) يدلُّ على وقتٍ مِنَ الأوقات[5]. السَّحَرُ والسَّحَرَةُ: اختلاطُ ظلام آخر اللَّيل بضياء النَّهار، وجُعل اسمًا لذلك الوقت، ويُقالُ: لقيته بأعلى السَّحَرَين، والمُسَحِرُ: الخارج سَحرًا، والسَّحورُ: اسمٌ للطَّعام المأكول سَحَرًا، والتَّسَحُّرُ: أكْلُه[6]. وسَحَر إذا كان نكرةً يُرادُ به سَحَرٌ مِنَ الأسحار: انصرَفَ، تقولُ: أتيتُ زيدًا سحرًا، فإذا أردتَ يومكَ، قلتَ: أتيته سَحَرَ يا هذا، وأتيتُه بسَحَرٍ[7]. والمراد به في الآية: ما بين آخر اللَّيل وطُلوع الفجر حيثُ يختلطُ سَوادُ اللَّيل ببياض النَّهار[8].

3) ﴿بَطْشَتَنَا﴾: أصلُ (بطش) يدلُّ على أخذِ الشَّيء بقَهرٍ وغلَبَةٍ وقوَّةٍ[9]. والبَطْش: التَّناوُلُ بشِدَّةٍ عِندَ الصَّوْلة، والأخذُ الشَّديدُ في كُلِّ شَيءٍ بطشٌ؛ بَطَشَ يَبطُشُ ويَبطِشُ بَطْشًا[10]، وكلُّ ما في القرآن مِنَ البطشِ فهو بمعنى الأخذِ الشَّديدِ - صولةً أو عقوبةً[11]، فالبَطْشَةُ هنا: المَرَّةُ مِنَ البطشِ، وهو الأخذُ بعُنفٍ؛ لعِقابٍ ونحوِه[12].

4) ﴿فَتَمَارَوْا﴾: أصلُ المَرْي من مَرَيْتُ النّاقةَ: إذا مَسَحْتُ ضَرعَها للحَلْب[13]، والمِراءُ: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذهبِ الشَّكِّ والرّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَةِ: مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ

(1) الخليل، العين: (حصب).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حصب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حصب).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(6) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 21/ 115.
(8) مَجمَع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 1184.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطش).
(10) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (بطش).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بطش).
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مرى/ مري).

واحِدٍ يَستَخرجُ ما عندَ صاحِبِه ويَمتَريه كما يَمتَري الحالِبُ مِنَ الضَّرْعِ[1]. والامتِراءُ: الشَّكُّ والتَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو المُحاجَّة فيما فيه مِرْية. قال تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34]. والتَّماري في الآية: تفاعُلٌ مِن المِراءِ وهو الشَّكُّ، وصيغةُ المُفاعَلَة للمُبالَغة[2].

5) ﴿رَٰوَدُوهُ﴾: أصل (رود) يدُلُّ على مَجيءٍ وذَهابٍ[3]. والمُراوَدة: مُفاعَلةٌ مِن رادَ يَرودُ: إذا جاءَ وذهبَ[4]. والمُراوَدَة: المُراجَعَةُ والمُرادَدَةُ، وراوَدَ جاريَتَه عَن نفسها، وراودَتْه هيَ عن نَفسِه، إذا حاولَ كلُّ واحِد من صاحِبه الوَطءَ والجِماعَ[5]. ومعناها: أن تُنازعَ غيرَك في الإرادة، فتريدُ غيرَ ما يريدُ، أو تَرودَ غيرَ ما يَرودُ، وراوَدتُ فلانًا عن كذا[6]. وعليه فالمُراوَدَةُ هنا مُرادٌ بها: مُحاوَلَةُ رِضَى الكارِهِ شيئًا بقَبولِ ما كَرِهَهُ[7]، فقومُ لوطٍ عليه السلام أرادوا مِنه تَمكينَهم من ضُيوفِه، مِمَّن كانَ أتاهُ مِنَ المَلائِكَةِ في هَيئَةِ الأضيافِ- طَلَبًا لِلفاحِشَةِ[8].

6) ﴿فَطَمَسْنَآ﴾: أصلُ (طمس) يدلُّ على مَحْوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[9]، ومنه الطَّمْسُ: الإهلاكُ والإتلافُ ومَحْوُ أثَرِ الشَّيء، يُقالُ: طمَسَ الشَّيءُ ويطمِسُ طُموسًا إذا زالَ بحيثُ لا يُرى ولا يُعرفُ لذهاب صورتِه[10]، ومثالُه: طَمْسُ الخَطِّ، وطَمْسُ الأثَرِ. والشَّيءُ طامِسٌ أيضًا، وقد طَمَسَ هو بنَفسِه[11]. ويأتي بمعنى ذَهابِ ضَوءِ الشَّيءِ، يُقالُ: طَمَسَ النَّجمُ: ذَهَبَ ضَوءُهُ، والقمرُ مثلُه[12]، ويُقال: عَينٌ طمْس ومَطموس، وهو الَّذي لا يُرى شقُّ عَينِه ولا يَتبيَّنُ جَفنُه[13]. ومعنى ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: حَجَبناها عنِ الأبصارِ فلم ترَ شيئًا[14].

(1) الرّاغب، المفردات: (مرى).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رود).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 454.
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (رود).
(6) الرّاغب، المفردات: (رود).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 144.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمس).
(10) الرّاغب، المفردات: (طمس).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمس).
(12) الخليل، العين: (طمس).
(13) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 512.
(14) المراغيّ، تفسير القرآن: 27/ 92.

7) ﴿بُكۡرَةً﴾: أصلُ (بكر) يدلُّ على أوَّلِ الشَّيء وبَدْئه. ومنه البُكرةُ وهي الغَداةُ، والجمعُ البُكَر. والتَّبكير والبُكور والابتكار المُضيُّ في ذلك الوقت[1]. والبُكْرَة الّتي هي أوَّلُ النَّهار، فاشتُقَّ من لفظه لفظُ الفعل، فقيل: بَكَرَ فلان بُكورًا: إذا خرجَ بُكْرَةً[2]. وكلُّ مَن بادرَ إلى الشَّيء فقد أبْكَرَ إليه وبَكَّرَ، أيَّ وقتٍ كانَ[3]. والمراد بها هنا: أوَّلُ النَّهارِ، وهو وقتُ الصُّبح[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نجاةُ آلِ لوطٍ وهلاكُ قومِهِ عِبرةٌ للغافِلين وتمكينٌ للشاكِرين

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ قصَّةَ قوم لوط - أهل قرى سَدوم وعمورة - الّذين كذَّبوا رسولَهم لوطًا، وخالَفوا أمرَ اللّه، وأصرّوا على الفاحشة، فأعرضوا عن النُّذُر الّتي أنذرَهم بها، وتطاوَلوا في العِناد، فأرسلَ اللّهُ عليهم عذابًا مُهلِكًا، بدأ بحاصِبٍ، وهو ريحٌ ترميهم بالحجارة، ثمَّ قلبَ اللّهُ عليهم قُراهُم، فجعلَ عاليَها سافلَها، ونجَّى اللّهُ لوطًا ومَن آمنَ معه من أهله في وقتِ السَّحر، رحمةً منه وفضلًا؛ لأنَّهم شكروا اللّهَ بالإيمان والطّاعة. وهذه سُنَّة اللّه: يُنجي مَن يشكرُه، ويُعاقِبُ مَن يُعرِضُ ويَكفُرُ.

وكان قومُ لوطٍ قد أُعذِروا، فقد أنذرَهُم اللّهُ مرارًا، ولكنَّهم تمادَوا، بل راودوا نبيَّهم عن ضُيوفِه الملائكة ليفعلوا بهم الفاحشةَ، فطَمَسَ اللّهُ أعينَهم، وجعلَهُم عِبرةً، وقيلَ لهم: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، ثمَّ جاءَهم العذابُ في الصَّباح، فكان عذابًا مُستقِرًّا لا يُفارقُهُم، عذابًا في الدُّنيا وعذابًا مُمتدًّا في جهنَّم. ويُختمُ المَشهَدُ كما خُتِمَ ما قبلَهُ بتذكيرٍ: بيُسرِ القرآنِ ودَعوَتِه للاتِّعاظ به، فهل مِن مُدَّكِرٍ يَعتبرُ ويَتجنَّبُ مَصيرَ الغافِلين[5]؟.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بكر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكر).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(5) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 216.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآيات عن سابقتها:

فصلَت هذه الآياتُ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ لكمال الانفصال؛ للإشارة إلى أنَّ قصَّةَ قوم لوطٍ مُتميِّزةٌ عن قصَّة ثمودَ قبلها، مع أنَّ الجامِعَ واحدٌ: وهو (تكذيبُ الرُّسلِ وعاقبةُ المُكذِّبين). فالفصلُ يحقِّقُ الانتقالَ من قصَّةٍ إلى أخرى ومن مَشهَدٍ إلى آخر، ويُهيِّئ الذِّهن لاستقبال عِظةٍ جديدةٍ مُستقلَّةٍ. ففائدةُ الفصل تتلخَّصُ في استقلال كلِّ قصَّةٍ ببيان مَضمونها، بذكر كلِّ أمَّةٍ بعذابها؛ ليكونَ العذابُ واقِعًا مُتكرِّرًا على المُكذِّبين، لا مُجرَّد حادثةٍ واحدةٍ، فيتأكَّدُ معنى سُنَّة الله في إهلاك الكافرين.

تفصيلُ القرآن للقصص بأحداثٍ مُتباينةٍ يُثبتُ أنَّ سُنَّةَ الله واحدةٌ لا تتبدَّلُ

علَّةُ تعريف القوم بالإضافة إلى اسم نبيِّهم:

جاء تعريفُ ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ بالإضافة إلى نبيِّهم دون ذكرِ اسمٍ مَعلومٍ لهم كعادٍ وثمودَ، لأنَّهم لم يكونوا يُعرَفون باسمٍ مُستقلٍّ عند العربِ، فرُبِطوا باسم نبيِّهم المَعروف[1]، فقد عُرِفوا به، واشتُهروا بالانتساب إليه، ولخسَّة فاحشتهم لم يرضَ بهم أحدٌ انتِسابًا، وقد جرَتِ الإضافةُ مَجرَى الأعلامِ المُشتهِرة على الأقوام المُندثِرة.

خِسَّةُ الفاحشة تُبعِدُ النّاسَ عن صاحبها ولو بالاسم

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي:

صيغة الماضي في قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق التّكذيب ووقوعه منهم، فهو سياقُ تقريرٍ وتسجيلٍ.

دلالة جمع (النُّذُر):

أفادَ جمعُ النُّذُر في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ﴾ العمومَ؛ أي: كذَّبوا بكلِّ مَن أنذرَهم أو كلِّ ما أُنذروا به، وهو عامٌّ في نُذُر لوطٍ أو نُذُر مَن تقدَّمَه أو إنذاراتِ الله جميعًا؛ لأنَّ داعيةَ الاستهانة

مَن كَذَّبَ برسولٍ فقد كَذَّبَ بالرُّسل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

الشّاملة برسالات التّحذير حاصلةٌ في المُكذِّب أبدًا، فلو عُرِضَ عليه كلُّ رسولٍ لكذَّبه، فكان تكذيبُهُ لواحدٍ تكذيبًا للجميع.

مَوقِع جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾:

جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبار عن قوم لوطٍ بأنَّهم كذَّبوا بالنُّذُر[1]، فجاءَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: ما شأنُهم؟ أو ما قصَّتُهم؟.

توجيهُ حذفِ طَيِّ الحوار بخلافِ القَصص المُتقدِّم:

تفصيلُ الفاحشةِ القبيحةِ في مَوضِعٍ يُغني عن سَردِها في باقي المَواضِع

بدأ النَّظمُ الكريمُ بذِكْرِ عذابِ قومِ لوطٍ بعدَ الإخبار عن تكذيبهم: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ﴾، ثمَّ قال: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾؛ ولم يذكُرْ بينهما كيفيَّةَ ذلك، كما كان في قصّة نوحٍ وثمودَ في هذه السّورة؛ ونكتةُ ذلك اشتهارُ أمرِهم وذُيوعُ جريمتهم، فطَواها وعجَّلَ بعَذابها؛ للدَّلالة على مُنتهَى قُبْحِها الَّذي لا يَكفُّهُ إلّا تعجيلُ العذابِ في الواقع، وذَكَرُهُ في النَّظم؛ ليكونَ موافِقًا للواقع[2]، كما أنَّ سورةَ القمر بُنِيَت على تهديد المُشركين لإعراضِهم عنِ الاتِّعاظ بآيات الله الّتي شاهَدوها، وآثارِ آياته على الأمم الماضية الّتي علِموا أخبارَها، وشهِدوا آثارَها، فلم يكُنْ ثَمَّةَ مُقتَضًى لتفصيل أقوالِ تلك الأمم إلّا ما كان منها مُشابِهًا لأقوال المُشركين في تفصيله، ولم تكُنْ أقوالُ قومِ لوطٍ بتلك المَثابة، فلذلك اقتُصِرَ فيها على حكاية ما هو مُشترَكٌ بينهم وبين المُشركين، وهو تكذيبُ رسولِهم وإعراضُهم عن نُذُرِه[3].

غرَضُ تنكير لفظ ﴿حَاصِبًا﴾:

تنكيرُ العذاب يَزيدُهُ رهبةً، ويُذكِّرُ أنَّ بطشَ الله لا يُحَدُّ ولا يُحاطُ به

نُكِّر لفظ ﴿حَاصِبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾؛ لإفادة التَّهويل والتَّفخيم؛ أي: ريحًا حاصِبةً

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 124.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

مَجهولةَ الكيفيَّةِ مُرعِبةً مُدمِّرةً لا يُدرَكُ كُنهُها، وهذا الأثرُ التَّنكيريُّ يجعَلُ السّامعَ يَتخيَّلُ عذابًا عظيمًا ﴿حَاصِبًا﴾ مُتنوِّعَ الكيفيَّةِ، فيبقى أثرُ الوعيد حاضرًا في النَّفس بلا تحديدٍ يُقيِّدُهُ.

نوع الاستثناء ودلالته:

كَثرةُ الخبيث لا يُعدَمُ فيه نقاءُ الطَّيِّب

الاستثناء في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ هو استثناءٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ آلَ لوطٍ من قومه بلا شكٍّ، فدخَلوا في جنسِ المُستثنَى منه، وهو قومُ لوط، فيصحُّ أن يُستثنَوا منهم، لذا كان الاستثناءُ حقيقيًّا مُتَّصلًا، ولم يُذكَرْ لوطٌ ﷺ في المُستثنى؛ لدخوله فيه بدلالة الفَحوى (المعنى المَفهوم)؛ لأنَّه نبيُّهم، وهو الأصلُ في النَّجاة؛ ولأنَّه لو استُثنيَ الآلُ وتُرِكَ هو لكانَ في ذلك خللٌ في معنى النَّظم. والقاعدة: أنَّه إذا ذُكِر الفرعُ، ولم يُذكَرِ الأصلُ، دلَّ على أنَّ الأصلَ أولى وأحرَى، وهذا من باب فحوَى الخطاب أو قياسِ الأولى[1]، وجاء الاستثناءُ بعد تقرير العذاب؛ ليُبرزَ العناية الخاصَّةَ والنَّجاةَ المُنفرِدةَ، ويُقوّيَ في النَّفس مَشهَدَ التَّفرقةِ بين المُهلَكينَ والنّاجين.

توجيه السُّكوت عن ذِكرِ زوجةِ لوط:

لا ينفَعُ النَّسبُ عندَ فسادِ العقيدة

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم﴾ لم يُذكَرْ استثناءُ الزَّوجة، رغم أنَّها لم تُنَجَّ، والسِّرُّ: أنَّ القرآنَ قد سبقَ وأن بيَّنَ في مَواضِعَ أخرى أنَّها كانَت مِنَ الغابرين، كقوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾ [الأعراف: 83]، فحَصَلَ الاكتفاءُ بذلك، وكذلك في الحذفِ تنبيهٌ على أنَّ النَّجاةَ ليسَت بالنَّسب بل بالإيمان، فمَن لم يُؤمِن، لا يُعدُّ مِنَ الآل، وإنْ كانَت زوجَ النَّبيِّ، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: 46][2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204، وابن جُزَي، تقريب الوصول، ص: 163، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 860.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

غرضُ إسنادِ فعلِ الإنجاءِ إلى ضميرِ العظمة:

النَّصرُ والنَّجاةُ لا تكونُ إلّا من عند الله مهما عَظُمت الأخطارُ

أُسنِد فعلُ الإنجاء إلى ضمير العظمة ﴿نَجَّيْنَٰهُم﴾؛ لإظهار عِظم الفضل والمِنَّة، وأنَّ النَّجاةَ ليسَت بطبيعة الأسباب ولا بقُدرة بشرٍ، بل هي من فعل اللّٰه العظيم وحدَه. وفي ذلك تعظيمٌ للمِنَّة على آل لوطٍ، وتأكيدٌ أنَّ نجاتَهُم كانَت بقُدرة اللّٰه وحدَه، فيقوى أثرُ الامتنان في قلوب السّامِعين.

نكتةُ حذف مُتعلَّق الإنجاء:

عنايةُ اللهِ بعباده المؤمنين تَحفَظُهم من كلِّ سوءٍ

حُذِف مُتعلَّقُ فعلِ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾؛ للتَّعميم والإطلاق؛ أي: نجَّيناهُم من كلِّ ما أحاطَ بهم من عذاب الاستئصال والمَهالِك. والحذفُ أبلغُ مِنَ التَّقييد ببيان شُمول النَّجاة وكمالِ العناية الإلهيَّة؛ فالحفظُ الإلهيُّ قد أحاطَ بهم من كلِّ جهةٍ، وهو حذفٌ دلَّ عليه السّياقُ في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم﴾؛ أي: نجَّيناهُم من ذلك العذابِ المُرسَلِ فلم يُصِبهُم شيءٌ من ذلك.

نوعُ الباء ودلالتُها:

وقتُ النَّجاة لا يُخطئُ مَوعِدَه

الباء في قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ للمُلابسة[1]؛ أي: نجاتُهم مُلتَبسةٌ بوقت السَّحرِ داخِلين فيه. وعبَّرَ بها دون الظَّرفيَّة (في سَحَر)؛ للتّأكيد على أهمّيّة نجاتِهم وتعظيمًا لها بإلصاقها في ظرفِ وقوعِها، فكأنَّ نجاتَهُم في دقَّةِ إيقاعِها في ميقاتِها، صارَت كاللَّصيق بالوَقت المُتشبِّث به.

دلالة ذكر السَّحَرِ:

إخبارُ القرآن بالواقعِ لفائدةٍ تنفَعُ العباد

ذُكِرَ السَّحَرُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾؛ للإخبار عنِ الواقع والزَّمن الّذي وقَعَ فيه الإنجاءُ، وللإشارة إلى أنَّ إنجاءَهم وقَعَ قبيل حلولِ العذابِ بقومِهم لقوله تعالى بعدَه: ﴿وَلَقَدْ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 331.

صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٌ مُّسۡتَقِرٌّ﴾[1]، فنجّاهم اللّهُ في آخر وقتٍ مُمكنٍ للنَّجاة، وهذا يُعمِّقُ صورةَ النَّجاةِ السَّريعةِ المَلهوفةِ، ويُشعِرُ بأنَّ العذابَ لاحِقٌ بهم لا مَحالةَ، فلم يُمهَلِ القومُ بعد خروجِ لوطٍ ﷺ إلّا قليلًا، وفيه سبقُ الرَّحمةِ للغضب.

فائدةُ ذِكْرِ وقتِ السَّحَر:

أفادَ ذكرُ السَّحَر في قوله تعالى: ﴿نَجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ استحضارَ نعمةِ الإنجاءِ للمُؤمنين؛ ليكونَ هذا الوقتُ وقتَ الدُّعاء للإنجاء مِنَ الظّالِمين في كلِّ وقتٍ وحين.

نكتةُ تنكير لفظ (سَحَر):

نُكِّر لفظُ (سَحَرٍ) في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾؛ للتَّعظيم والتَّهويل؛ أي: في وقتٍ عجيبٍ مَخصوصٍ مِن أسحارِ اللَّيالي، قليلِ البركةِ في حقِّ الكافرين، عظيمِ النِّعمةِ في حقِّ النّاجين. فالتَّنكيرُ يُلفِتُ السّامِعَ إلى دقَّة التَّوقيتِ ولُطفِ التَّدبير؛ فنَجاتُهم لم تكُنْ جُزافًا، بل في ساعةٍ مَخصوصةٍ جعلَها اللّهُ ميعادًا للفصلِ بين الهلاكِ والنَّجاة.

نصرُ الله يأتي في لحظةٍ مُقدَّرةٍ لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ

مَوقِع جملة ﴿نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ للإنجاء الوارد في قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾، كأنَّه قيل: نجَّيناهم لأجلِ إنعامِنا عليهم. و﴿نِّعۡمَةً﴾ مفعولٌ له، فهو بيانٌ لسببِ الفعلِ، وهو قوله: ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم﴾[2].

إنجاءُ الله لعبادِه فضلُ إنعامٍ وعظيمُ امتنانٍ

غرضُ تنكير كلمة ﴿نِّعۡمَةً﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿نِّعۡمَةً﴾؛ للتَّفخيم والتَّعظيم؛ أي: نعمةٌ عظيمةٌ تُجَلُّ

كلُّ نجاةٍ نعمةٌ مَخصوصةٌ ونعمةٌ مَمدودةٌ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 131، والخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 167.

عنِ الوصف؛ لأنَّها نعمةُ النَّجاة مِنَ العذاب الّذي أهلَكَ أمَّةً بكاملها. ولإفادة النَّوعيَّة والتَّميُّز؛ أي: هذه النِّعمةُ نوعٌ خاصٌّ فريدٌ مِنَ النِّعم، لا يماثلُهُ غيرُهُ، وهي النَّجاةُ الاستثنائيَّةُ في لحظةِ الهلاك العامِّ. فتنكيرُ ﴿نِّعْمَةً﴾ دلَّ على أنَّها نوعٌ مِنَ النِّعم الّتي لا تكونُ إلّا من عند الله، لا تُنالُ بكسبٍ أو حيلةٍ. ولإفادة الإبهام؛ للإجلال، فتنكيرُ النِّعمة لتفخيم شأنِها على وجهٍ يُشبِهُ الإبهامَ المَقصودَ، كقول القائل: (لقد أنعمتُ عليه نعمةً)، والمراد: نعمةٌ مَبهمَةٌ لا تكادُ توصَفُ من فرط عظمتِها. وقد يفيدُ التَّنكيرُ - هنا - الإطلاقَ والشُّمولَ، فيحتمِلُ أنَّ المقصودَ بـ﴿نِّعْمَةً﴾ كلُّ ما نالَهم مِنَ الفضل، مِنَ النَّجاة، والهداية، والإكرام، وإبعادهم عن مَواطِن السّوء، فجاءَتِ الكلمةُ نكرةً؛ لِتدلَّ على نِعمةٍ جامِعةٍ شاملةٍ لكلِّ ذلك[1].

كـلُّ نِعمةٍ آتيةٌ مِنَ الله وحدَه، فـالـشُّـكـرُ لـه وحدَهُ

نوع ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ابتدائيَّةٌ، تفيدُ ابتداءَ الغاية؛ أي: إنَّ هذه النِّعمةَ صادرةٌ ابتداءً من عند الله وحدَه لا من غيره. فحرفُ الابتداء هنا يوضِّحُ مَصدرَ النِّعمة وخصوصيَّتَها، فيربطُها بكرم الله، لا بسبب فعاليَّةٍ أو وسيلةٍ أرضيَّةٍ، فيتعمَّقُ بذلك أثرُ الامتنان والتَّذكير بفضلِ الله وحدَهُ.

دلالة التَّعبير بالعِندِيَّة:

التَّعبير بالظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾ تنويهٌ بشأن النِّعمة؛ لأنَّ ظرفَ (عند) يدلُّ على الادِّخار والاستِئثارِ، فذلك أبلغُ مِن أن يُقال: نِعمةٌ منّا، أو: أنعَمنا[2].

مَوقِع جملة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾:

جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ مُعترِضةٌ، وهي استئنافٌ بيانيٌّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.

عن جملة ﴿نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾، باعتبار ما معها مِنَ الحال؛ أي: إنعامًا لأجل أنَّه شَكَر، ففيه إيماءٌ بأنَّ إهلاكَ غيرهم لأنَّهم كفروا، وهذا تعريضٌ بإنذار المُشركين وبشارةٌ للمُؤمنين، كأنَّه قيل: هل ذلك الإنجاءُ مُختصٌّ بهم؟ فأُجيبَ بعمومهِ لأمثالِ آلِ لوطٍ مِن كلِّ مؤمنٍ شاكرٍ[1].

الشُّكرُ قنطرةُ النَّجاةِ وأصلُ البلوغِ

بلاغة التَّمثيل وغرَضُه:

مُثِّل إنجاءُ آلِ لوطٍ المُشار إليه باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ بأن سيكونَ مثلَهُ لكلِّ مَن شَكَرَ؛ فالمعنى: كما أنجيناهُم بتلك النِّعمةِ، كذلك نجزي كلَّ شاكرٍ بنجاةٍ خاصَّةٍ به؛ أي: «مِثلُ هذا الإنجاءِ العظيمِ الّذي جعلَنا جَزاءً لهم ﴿نَجْزِي﴾ بقُدرتنا وعَظمَتنا ﴿مَن شَكَرَ﴾»[2]. وهو تمثيلٌ، وغرضُهُ التَّقريرُ والتَّثبيتُ لقاعدةٍ مُطَّردةٍ لا تتخلَّفُ: أنَّ اللَّهَ يُنعِم ويُنجّي مَن شكَرَه. مع التَّحفيز على الشُّكر بربطِ الجزاءِ المَوعود بصورةٍ عمليّةٍ واقعيّةٍ رآها المُخاطَبون في قصَّة لوطٍ عليه السلام.

إنجاءُ آلِ لوطٍ مثالٌ حيٌّ يُجسِّدُ وعدَ اللهِ الدّائمَ بجزاءِ الشّاكِرين

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:

التَّعبيرُ باسم الإشارة البعيد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾؛ للدَّلالة على البُعد المعنويِّ وفَخامةِ المَنزلة، فإنَّه لمّا كانَت واقعةُ إنجاء آلِ لوط أمرًا عظيمًا جَلَلًا بعيدًا عن مألوف النّاس، ناسَبَ أن يُعبَّرَ باسم الإشارة البعيد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّفخيم. وهذا البُعدُ المعنويُّ - بواسطة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ - هو الّذي مَهَّدَ للانتقال مِنَ الواقعة الجزئيَّةِ (إنجاءِ آل لوط) إلى القانون العامِّ (جزاء كلِّ شاكر)؛ لأنَّ ما يُعظَّمُ ويُفخَّمُ يُجعَلُ أنموذجًا يُقاسُ عليه غيرُهُ.

تعظيمُ الحدثِ تأهيلٌ له؛ ليكون مثالًا يُعمَّمُ على غيره

بلاغةُ اختيار مُفردة الشُّكر دون غيرها:

خصَّ النَّظمُ الكريمُ مُفردةَ الشُّكر دون غيرها مِنَ الأعمال في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

الشُّكرُ عبادةُ المُقرَّبين، والنَّجاةُ مكافأةُ الصّابرين

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾؛ وذلك لأنَّ السّياقَ يدورُ على (النَّجاة) الّتي وصفَها بأنَّها: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾، فلمّا كانَتِ النَّجاةُ نعمةً مَحضةً مِنَ الله، كان الشُّكرُ هو المُقابلَ الأنسبَ لهذا الإنعام، وهو الاعترافُ بالنِّعمة والتَّصرُّفُ فيها على وجهٍ مَرضيّ. فثبتَ بذلك أنَّ الشُّكرَ هنا لفظٌ جامعٌ لغيره مِنَ الصِّفات والأعمال، وهو الأليقُ بالسّياق. كما أنَّه: في اصطفاء الشُّكر هنا دون غيره مُقابلةٌ خفيَّةٌ مع تمرُّد الكافرين، فالسّياقُ مليءٌ بكُفر قومِ لوطٍ، ومراوغتِهم وتمرُّدِهم، في قوله: ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾، وقوله: ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾، فجاء الشُّكرُ هنا: للشّاكرين عن أولئك الكافرين، وتأكيدًا أنَّ الجزاءَ مُرتبِطٌ بشُكر النِّعمة لا بمُجرَّد الانتماء[1].

بلاغة فنّ الاحتباك:

الاحتباكُ يُثيرُ الذِّهنَ، ويُحفِّزُ الفهمَ، ويزيدُ البلاغةَ اتِّساعًا

في قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ احتباكٌ، حيث ذَكَرَ النِّعمةَ أوَّلًا، ولم يذكُرْ ما يقابلُها من شُكرٍ في المَوضِع الأوَّل، ثمَّ ذُكِرَ الشُّكرُ في الجملة الثّانية (نَجزي مَن شَكَر)، ولم يُذكَرْ فيها النِّعمةُ الّتي هي سببُ الثَّواب والجزاء، فكأنَّ التَّقديرَ: أنجيناهُم نعمةً مِن عندنا، فشكروا، فنَجزي مَن شَكَرَنا على نِعمَتِنا[2].

نكتةُ حذف مُتعلَّق الشُّكر:

الشُّكرُ سبيلُ المُحسِنين في الأمر كلِّه

حُذِفَ مُتعلَّقُ فعلِ الشُّكر في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾؛ لإفادة العموم والإطلاق؛ أي: نَجزي مَن شكرَ ربَّه في أيِّ نعمةٍ وعلى أيِّ حال، دون تقييدٍ بنعمةٍ مَخصوصةٍ. وهذا العمومُ يفتَحُ البابَ واسعًا أمام المُخاطَب ليَجعلَ شُكرَهُ شاملًا لكلِّ نِعَم الله، فيتأكَّدَ عمومُ الحُكم، ويَعظُمَ الحافزُ على الشُّكر بجميع أنواعه وخِصاله[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

نوعُ العطفِ وبلاغتُه بين الجمل:

التَّكذيبُ سابقٌ للتَّعذيب، وقد يتأخَّرُ ذِكرُهُ لبيانِ السَّبب

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ عطفٌ على جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾[1]، فذَكَرَ وقوعَ العذابِ أوَّلًا، ثُمَّ عَطَفَ عليه الإنذارَ السّابقَ له، وهو الأصلُ الّذي بُنِيَ عليه العذابُ. فالعطفُ إذًا ليس للتَّرتيب الزَّمنيِّ، بل للتَّفصيل السَّببيِّ، فالإنذارُ تعليلٌ وبيانٌ للسَّببِ الّذي أوجبَ ذلك العذابَ. وهذا كثيرٌ في القرآن؛ حيث يُذكَرُ الأثرُ أوَّلًا، ثمَّ يُعطَفُ عليه السَّببُ على سبيل التَّفسير والتَّعليل، لا التَّرتيب الزَّمنيّ[2].

نكتةُ تصدير الجملة بلامِ القسَمِ وحرفِ التَّحقيق:

البيانُ إذا تأكَّدَ، بَـلَـغَ الـغـايـةَ في الإعذار

تصديرُ الجملة بلام القَسَم وحرفِ التَّحقيق، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ﴾؛ لتوكيد مَضمونها؛ لإثباتِ الإنذار السّابق على العذاب، وهذا الأسلوبُ يوصِلُ العتابَ والوعيدَ بأقوى صورةٍ مُمكِنةٍ. وفيه تأكيدُ الغرَض الّذي سيقَتِ القصَّةُ لأجله، وهو مَوعِظةُ قُريشٍ الّذين أنذرَهُم رسولُ الله ﷺ فتَمارَوا بالنُّذُر[3].

دلالة التَّعبير بفعل الإنذار:

جاء اختيارُ فعل الإنذار في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ للإيذان بالتَّحذير الشَّديد والتَّخويف مِنَ العاقبة، ولاسيَّما قد اقترنَ بذِكر البَطشة.

نكتةُ إيثار إضمارِ الفاعل دون التَّصريح به:

توجيه النَّظر إلى الإنـذار الشَّديد لترهيب المُخاطَب بما أُعلِمَ به

أُضمِرَ الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ لينصرِفَ النَّظرُ إلى فظاعة المُنذَر به (بطشةُ الله) وعظمتِهِ، وهذا الأسلوبُ يوجِّهُ ذهنَ السّامِع إلى مَضمون الرِّسالة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 315، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.

(الإنذار بالبَطش) لا إلى صاحبِها، فيجعل جوهرَ القضية هو الخطرَ الدّاهِمَ نفسَهُ، ويؤكِّدُ أنَّ الإنذارَ قائمٌ بذاتِه، وحُجَّتُهُ بالغةٌ مهما كان القائل.

نكتة إفراد لفظ ﴿بَطْشَتَنَا﴾:

بطشةٌ واحدةٌ مِنَ الله كفيلةٌ بالعذاب العظيم لِخلْقه

أُفرِدَ لفظُ البَطشة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ﴾، وهو المَرَّةُ الواحدةُ مِنَ البَطش[1]، إشارةً إلى تهوين العذابِ باعتبار مَن صَدَرَ عنه، وهو الله ﷻ، وتعظيمه في الأثر باعتبار مَن نَزَلَ فيهم العذابُ، فالأَخْذةُ الواحدةُ كافيةٌ لِما لله من عَظَمَةٍ وقُدرةٍ، فهي غيرُ مُحتاجَةٍ إلى التَّثنيَة؛ ولذلك قرنَها بضمير التَّعظيم ﴿بَطْشَتَنَا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الصِّفاتِ على قدر الذَّوات، فالفِعلَةُ الواحدةُ مِنَ العظيم كثيرةٌ كافيةٌ[2]! وذلك الإفرادُ هنا يتناسَبُ مع قوله قبلَهُ: ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

نوع الإضافة ونُكتتُها:

كما أنَّ النِّعمةَ مِنَ الله لأوليائه، فكذلك البَطشة مِنَ الله لأعدائه

إضافةُ البَطشة إلى ضمير العَظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ بمعنى (مِن)، فكما أنَّ النِّعمةَ مِنَ الله لأوليائه، فكذلك البَطشةُ ماحِقةٌ لأعدائه، ونكتتُها إضفاءُ صبغةِ الجلالِ والرَّهبةِ على المعنى، فهي ليست أيَّ بطشةٍ، بل البطشةُ المنسوبةُ إلى الله العظيم الجبّار، وبتلك الإضافة يتأكَّد أنَّ الإنذارَ لم يكُن من خطَرٍ عاديٍّ بل من عقوبةٍ إلهيَّةٍ قاهرةٍ، فيوَجَّهُ الانتباهُ إلى خطورة الاستهزاء بها، ويَجعلُ التَّماريَ بالنُّذُر سفهًا بيِّنًا في مُقابلة قوَّةِ الله وجَبروتِه.

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

البَطشُ الإلهيُّ بالشَّواذِّ رحمةٌ ربانيَّةٌ بأصحاب الفِطرة

في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيث شُبِّهَتْ حالةُ العَذابِ المُرسَلِ عليهم بهيئة البَطش القاهِرِ من قادرٍ مُنتَقِمٍ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

ولفظةُ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ على صيغة الإفراد كنايةٌ عنِ الإهلاك السَّريع؛ لأنَّه من لوازم البَطشةِ الواحدةِ أن تكونَ فجائيَّةً عنيفةً سريعةً لا تُفْلِتُ[1].

نوعُ الفاء ودلالتُها:

طولُ أمَدِ الشَّكِّ إزهـاقٌ لـروح اليقين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ للعطف على ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾، وهي لتفريع الإنكار على الإنذار. والتَّعقيبُ بها للدَّلالة على سرعتهم في التَّكذيب من غير فِكْرٍ ولا نظَرٍ. وتصديرُ المَعطوف عليه بأدوات التَّوكيد في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ما تفرَّعَ عنه من تَماريهِم وتشكُّكِهم غيرُ جديرٍ به، فهو شكٌّ في مَوضِع الحقيقة واليقين، ويعضُّدُهُ مجيءُ المَعطوف بصيغةِ التَّفاعُل[2].

دلالة استعمال مادَّة المِراء:

المِـراءُ قـائمٌ على مُجانَبةِ الصَّواب ومُتارَكة صحيح الجواب

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردة ﴿فَتَمَارَوْا۟﴾ دون الجدال؛ لأنَّ الامتراءَ هو الشَّكُّ المَصحوبُ بالجدال، فهو شكٌّ جدليٌّ[3]، فهو يُمارَسُ رغمَ وضوح الأدلَّة؛ لنبوعِه من العِناد لا مِنَ الجهل، ولذلك لم يُعبَّرْ بالشَّكِّ وحدَهُ؛ لأنَّ الشَّكَّ قد يكونُ عن نقصٍ في المَعرفة. ولم يُعبَّرْ بالجدال وحدَهُ؛ لأنَّ الجدالَ قد يَصدُرُ عنِ الحجَّةِ والبرهان واليقين، فيقعُ على نحوٍ مَحمودٍ[4]، لكنَّه هنا جدالٌ على غير أساسٍ وعلى غير يقينٍ، ولذا عبَّرَ عن تلك الحال المُضطرِبةِ المُختلِطةِ مِنَ الشَّكِّ والجدلِ بالامتراء.

بلاغة صيغة التَّفاعُل ودلالتها:

الشُّكوكُ ألـواحُ الـهلاك، والمِـراءُ دُسُرُ الفناء

جاء التَّعبيرُ بصيغة (تفاعُل) للمُبالغة في الشَّكِّ والجِدال، فقوله: ﴿فَتَمَارَوْا۟﴾ يدلُّ على تَكرار الفعل واستمرارِه، بما يجعلُهُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126.
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (مرى).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (جدل).

قويًّا شديدًا في نفسِه، وبما يدُلُّ على تكلُّفِهم وتصميمِهم عليه، ويدُلُّ على المُشارَكة فيه (أي: كلٌّ منهم يُماري ويُجادلُ الآخر)[1]. فالصّيغة تُصوِّرُ القومَ في حالة اضطرابٍ وجدالٍ شديدٍ حول ما أُنذِروا به، لا يَثبتون على قولٍ، ولا يوقنون بما يَسمَعون، بل يَطعَنُ بعضُهم في بعضٍ، ويَتبادلون الشُّبهاتِ والمُكابرةَ، ممّا يُعمِّقُ حالتَهم مِنَ الكُفر والضَّلال.

نكتةُ تعديةِ فعلِ المِراء بالباء:

إقصاءُ المُصلِحين بوّابةُ السُّقوط، ومحاربتُهم؛ الهلاكُ نفسُه

آثَر النَّظمُ الكريمُ تعديةَ فعلِ الامتِراءِ بالباء في قوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ دون حرف الظَّرفيَّة؛ لتضمينِه معنى التَّكذيب، ويحتمِلُ حمْلَ الباء على معنى (في) الظَّرفيَّة من غير تضمين الفعل[2]. وفي التَّعدية بالباء هنا دون (في) مُناسبةٌ بديعةٌ مع التَّوكيدات في التَّركيب، وهو إفادةُ الباء في أصل مَعناها للإلصاقِ والمُقارَبة، فهي توحي بوقوعِ الفعلِ على الشَّيء أو به، ولو بأدنى مُلابسةٍ أو صِلةٍ. ففي السّياق ﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ دلَّتِ الباءُ على أنَّ المِراء تعلَّقَ بـ (النُّذُر) تعلُّقًا يُلصَقُ به مُجرَّدُ الجِدالِ أو الشَّكِّ، دونَ التَّعمُّق فيه أو الدُّخول الكاملِ في باطنِه؛ فمِراؤهم لم يكُنْ على وجهٍ فيه إنصافٌ أو تفكُّرٌ، بل كان مِراءً لاصقًا بالنُّذُر من خارجه، لا بحثًا عنِ الحقِّ في حقيقته وباطنه. فلو قيل: (فتَمارَوا في النُّذُر)؛ لأفادَ ذلك دُخولًا وتوَغُّلًا في موضوع النُّذُر؛ أي: أنَّ الشَّكَّ نشأ داخلَ بنيَتِه، وهذا يوهِمُ تسرُّبَ الشَّكِّ إلى أصل الرِّسالة أو مَضمونها. لكنَّ الباء هنا تمنَعُ هذا الإيهامَ، فهي تُنزِّهُ النُّذُرَ عنِ التُّهمة، وتجعَلُ الفعلَ مَنسوبًا إليهم باعتبار قضيَّة التَّكذيب لا باعتبار قضيَّةِ الإنذار. ويَعتضِدُ هذا تصديرُ التَّركيب بالمُؤكِّدات بـ ﴿وَلَقَدْ﴾، وصيغة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 244.

الماضي: ﴿أَنذَرَهُم﴾، وكلُّها تقرِّرُ البلاغَ، والإنذارَ، والعَدالةَ. فجاءَتِ (الباء) لتُقوّيَ المعنى بأنَّ النُّذُرَ في حِمَى اليقين، ولم تنفُذْ إليه ريبةٌ، وإنَّما أخطأ القومُ حين لاصَقوا ظاهرَ النُّذُر بمُراءاتِهم من غير تعمُّقٍ، فهُم لم يُدرِكوا جَوهرَها.

مَوقِع جملة ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ ممّا قبلَها:

جملة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ بيانٌ لجنايتهم بعدَ الإنذار الّذي كذَّبوه وكفروا به. فقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ بيانٌ للكفر العامِّ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ بيانٌ لأفعال الفُسوق الّتي أدَّى إليها الكفرُ[1]، فهو ذِكرٌ لجريمة المُراودة بعدَ ذِكر جريمةِ المُماراة؛ لِحشد جرائمِهم وبيانِ أنَّ اللّهَ تعالى لم يُنزِلْ بطشَتَهُ عليهم بظُلم، بل بما استحَقّوه مِنَ الكُفر والتَّكذيب.

منعُ النَّفس عنِ الفواحش بابٌ في إكرامِها وعَطائها

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردة ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مادَّة ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ مأخوذةٌ مِنَ الجذر (ر ود) الّذي يدلُّ على التَّردُّد والذَّهاب والإياب في الطَّلب؛ برفقٍ تارةً وخداعٍ تارةً، ثمَّ صارَ يُستعمَلُ في المُساومة والإلحاح، بل في التَّلطُّف الماكر في بلوغِ الغرض[2]، وجاءَ اللَّفظُ على صيغة (فاعَلَ)؛ لِتدلَّ على المُشاركة والمُحاولة؛ أي: إنَّ الفعلَ جرى بينَهم وبينَه في صورة مُدافَعَةٍ، فهُم يُلِحّون ويُكرِّرون الطَّلبَ ويُحاولون، وهو يُدافِعُ ويردُّهُم، فظَهرَ بذلك شدَّةُ العِناد من جانبهم والثَّباتُ من جانبه[3]. واجتماعُ المادَّةِ والصّيغةِ يكشِفُ عن إصرارٍ آثمٍ مِنَ القوم يُقابِلُهُ مُدافَعةُ نبيِّ اللّه ﷺ، لا مُجرَّد طلبٍ عابرٍ، ويُهيِّئُ السّياقَ لإبراز استحقاقِهم للعقوبة العاجلةِ (طَمس الأعين)، إذ سبَقَها فعلٌ قبيحٌ صيغتُهُ بذاتها شاهِدةٌ على قُبحِهم[4].

المُراودة تتطلَّبُ مَكرًا في الأداء وإلحاحًا في الإغواء

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رود).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رود).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 90.

بلاغةُ الكناية في لفظ المُراودَة:

قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ كنايةٌ عن صفةٍ، وهي قصدُ الفُجور في إتيان الأدبار[1]، ومُجادلةُ لوطٍ ﷺ لاقترافِ الآثام.

نكتةُ إسنادِ المُراودة إلى ضمير الجميع:

إذا استشرَى المُنكَر في الأمَّة عَمَّتِ العقوبةُ

أُسنِدَ فعلُ المُراودة إلى ضمير قوم لوطٍ في: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ﴾، وإنْ كانَ المُراودون نَفرًا منهم؛ لأنَّ ما راودوا عليه هو مرادُ جميعِ القوم، بقَطعِ النَّظرِ عن تَعيينِ مَن يفعلُهُ[2]. وهذا من إسنادِ ما للبعض إلى الجميع لِرضاهم به.

توجيه تعلُّقِ حرف الجرِّ ﴿عَن﴾ بفعل ﴿رَٰوَدُوهُ﴾:

مَن امتنعَ عن المروءة جوزي بعَينِ المَهانة

تعلَّقَ حرفُ الجرِّ ﴿عَن﴾ بفعل ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾، وهناك توجيهان لبيانِ تعلُّقِه؛ فإمّا أن يتعلَّقَ الحرفُ بمَحذوفٍ يعودُ على (التَّمكين)؛ أي: (راودوه عن تمكينِهِ من ضيفِه)، أو (عن حماية ضيفِهِ)، وهو قولٌ جارٍ على الأصل في استعمال (راودَ) الّتي تتعدَّى بنفسها دونَ حرفٍ. وهذا الوجهُ فيه تقديرُ مُضافٍ مَحذوفٍ (تمكينهم، أو حمايته)، وجُعِلَت ﴿عَن﴾ مُتعلِّقةً به.

وإمّا أن يُضمَّنَ فعلُ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ معنى فعلٍ آخرَ يتعدَّى بحرف ﴿عَن﴾؛ فضُمِّنَ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ معنى (صرفوه) أو (دَفعوه)؛ أي: أرادوا أن يَصرفوه عن ضيفِهِ. فـ﴿عَن﴾ على هذا ليسَت زائدةً ولا مُتعلِّقةً بمَحذوف، بل هي هيئةٌ لازمةٌ للفعل الجديد ضِمنًا، كما تقول: نهاهُ عن كذا أو صَرَفَهُ عَن كذا[3].

نكتةُ إفراد لفظِ الضّيف:

العِبرةُ في الجامِع لِلكَثرة باعتبارٍ واحدٍ

أُفرِدَ لفظُ (الضَّيف) في قوله تعالى: ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾، مع أنّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.

الضّيوفَ كانوا جماعةً مِنَ الملائكة؛ للتَّعبير عنِ الجمع باسم الجنس، أو للإشارة إلى أنَّ الضَّيفَ في حُكم الوحدة؛ لأنّهم جماعةٌ مُتَّحدِّون في جهةٍ واحدة، ومُرسَلون لغايةٍ واحدةٍ، وفي ذلك تهويلٌ للعدوان، إذ صوِّر كلُّ الضُّيوف، وكأنَّهم ضيفٌ واحدٌ، فصارَ العدوانُ عليهم عُدوانًا مُركَّزًا[1]، كما أنَّ الإفرادَ يُعطي وقعًا أوجزَ وأقوَى في السَّمع.

بلاغةُ الحذفِ وطيُّ الأحداث:

الحذفُ لتهويل المَوقِف وتسريعِ مَشهَد العقوبةِ بالتّركيز على أركان المَشهَد

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ لم يُذكَرْ ما جرى في المُراودة من أخذٍ وردٍّ وتهديدٍ ودفاعٍ من لوط ﷺ، ولا ما سَبقَ الطَّمسَ من مَحاولاتهم المُستَميتةِ للوصول إلى الضَّيف، ولا المُحاورة الحاصلة قبل الطَّمس، فحُذِفَ ذلك كلُّه ليُترك الجوُّ مَملوءًا بالتَّوتر والرَّهبة، ثمَّ يأتي الفعلُ الإلهيُّ المُفاجئ: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ قاطعًا لكلِّ جَدَلٍ. وهذا الحذفُ يُسرِّعُ الانتقالَ من جريمة القوم إلى عقوبتهم، فيُبرِزُ شدَّةَ المَوقِفِ وسرعةَ الانتقام، وكأنّ العذابَ داهمَهُم بغتةً دونَ مُهلةٍ. وهو أيضًا يركِّزُ السّامعَ على نتيجةِ المُراودة (الطَّمس والعذاب) لا على تفاصيلها، ولذلك كانَتِ الفاءُ في ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ للسَّببيَّة لا للتَّعقيب، لأنَّه كان قبلَ الطَّمسِ حوارٌ وجَدَلٌ[2].

دلالةُ عطفِ جملة ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ على ﴿رَٰوَدُوهُ﴾:

يَنطَفِئ نورُ البصَر بسبب ظُلمةِ البصيرة

تفريعُ طَمسِ أعينهم على مُراودتهم لضيوفه بالفاء في قوله تعالى: ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ قومَ لوطٍ عَموا قبل أن يُخسَفَ بهم، ويُمطَرَ عليهم؛ ففيه بيانٌ واضحٌ - لِمَن تدبَّرَه - أنَّ النَّظرَ إلى المُردِ للشَّهوة مَعصيةٌ؛ لأنَّ المَلائكةَ كانوا جاؤوا لوطًا في صورة المُردِ الحِسان مِنَ البشر، فلمّا رَمَقوهم بعين الشَّهوة عوقِبوا بالعَمى[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.
(3) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 2/ 209.

دلالةُ التَّعبير بمُفردة ﴿فَطَمَسْنَآ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الطَّمسُ مَحوٌ شامِلٌ وحاسِمٌ للأبصار بقُدرة الله القاهرة

كلمة ﴿فَطَمَسْنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ من جهة المادَّة: الطَّمْسُ في أصله يدلُّ على مَحو الأثرِ حتَّى يزولَ تمامًا، واستعماله هنا في الأعين يُفيدُ إزالتَها ومَحْوَ مَعالِمِها بحيث لا تُبصرُ ولا يُتخيَّلُ لها بقاءُ وظيفةٍ، وهو أبلغُ مِن لو قيل: (أعمَيناهُم)؛ لأنَّ العَمى تبقى معه العينُ في تجويفِها في الوجه، والّذي يَزولُ هو فقط وظيفةُ الإبصار، أمّا الطَّمسُ ففيه مَسحٌ لِمَكان العين وتسويتُه بسائر الوجهِ، فلا يكونُ للعين شَقٌّ[1]. ومن جهة الصّيغةِ فهو فعلٌ ماضٍ مُتعدٍّ مُسنَدٌ إلى ضمير العَظمة؛ فالمُضيُّ يُصوِّرُ الأمرَ كأنَّه قد وقَعَ وانتهى، فيُشعِرُ بالسُّرعة والحَسم. وإسنادُهُ إلى ضمير العظمة يدلُّ على أنَّ الطَّمسَ فِعلٌ إلهيٌّ ذو قوَّةٍ قاهرةٍ لا مَرَدَّ لها[2].

بلاغةُ الكنايةِ والمَجاز في طمسِ الأعيُن:

طَمسُ الأعيُن كنايةٌ عن عدم القُدرة على الاهتداءِ؛ ليَشملَهُم العذابُ

قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ كنايةٌ عن سَلب القُدرة على إدراك الحقِّ أو منعِهم من مَقصودِهم في الاعتداء على الضَّيف، فالعينُ آلةُ الهدايةِ في السَّير والرُّؤيَة، وطمسُها كنايةٌ عن إذلالهم وشلِّ حركتهم. ويَحتمِلُ أن يكونَ مَجازًا عنِ العمى أو تعطيل البصر؛ لأنَّ الطَّمسَ (محو الأثر) استُعمِل في غير معناه الحسّيِّ الأصليِّ، فصارَ استعارةً لِسَلبِ النَّظرِ ومحوِ مَنفعَةِ العين، كما أنَّ الطَّمسَ هو بدايةُ العَذاب، والبَطشةَ نهايتُهُ، إذ بطَمسِ أعيُنِهم تَندفِعُ القُدرةُ على رؤية الحقِّ، وبالتالي عدم الهداية فهي تشبهُ الغَرغرةَ وطلوعَ الشَّمس مِن مَغربِها، فالطَّمسُ هو رَفعُ القُدرةِ على الهداية لِتحقيقِ النَّجاة.

بلاغةُ المَجاز بحذف القَول:

قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوف دلَّ عليه سياقُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (طمس)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 90.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126.

الكلام؛ أي: (قلنا للنَّفَر الّذين طمَسْنا أعينَهم: فذوقوا عذابي) [1]. وهذا الأسلوبُ يُعدُّ مِنَ الإيجاز بالحذف، وفائدتُهُ: تهويلُ العذابِ وتعظيمُ وقعِه، فجاءَ الكلامُ بصيغة الأمر ﴿فَذُوقُواْ﴾، وكأنَّ المَقامَ لا يحتاجُ إلى أن يُقال: (قال اللّه لهم)، بل العذابُ نفسُهُ ناطِقٌ ومَهيبٌ بحيث لا يخفى قائلُهُ. وإذا حَصَلَ الإفهامُ ناسَبَهُ الاختصارُ، فلَمْ تكُنْ حاجةٌ إلى ذِكْر فعل القول. وهناك نكتةٌ بعيدةٌ في عُمقِ السّياقِ، وهو أنَّ هذه الجملةَ يتجدَّدُ ذِكرُها في السّورة مع تكذيب كلِّ أمَّةٍ لِرسولها، وتكرارُها يقتضي الإيجازَ فيها، وكأنَّها لازِمةٌ بلاغيَّةٌ تتردَّدُ مع كلِّ مَشهَدٍ وحَدَثٍ؛ لِتعميق أثرِها في النَّفسِ والعقل، وحذفُ القولِ يُجرِّدُها لذلك التَّأثيرِ الفاعِل.

العـذابُ ناطِـقٌ بنفسه فلا حاجةَ لذِكرِ قائِله

بلاغةُ المَجاز في التَّعبير عنِ الإحساس بالذَّوق:

استُعملَ لفظَ الذّوقِ في الإحساس بالعذاب في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ على سبيل المَجاز المُرسَل؛ لعلاقة التَّقييد في الإحساس[2]؛ لأنَّ الذَّوقَ أُطلِقَ وأُريدَ به مُطلَقُ الإدراكِ الحسّيِّ لِلعذاب، فقُيِّدَ أحدُ أنواع الإحساس (الذَّوق)، وأُريدَ به كلُّ إدراكٍ مُباشرٍ للألم. وهذا التَّقييدُ يُصوِّرُ شدَّةَ العذاب كأنَّه أمرٌ يلتصِقُ بالذّات، ويُدرَكُ إدراكًا حسّيًّا لا فكاكَ منه، فيُقرِّبُ المَعنى الغيبيِّ إلى الحِسِّ، ويجعلُ الوعيدَ أكثرَ إيلامًا وإقناعًا.

توسيعُ الإدراك الحسّيِّ ليجعلَ الـعـذابَ مَحسوسًا كأنَّه يُذاقُ

نكتةُ عطفِ النُّذُر على العذاب:

عَطَفُ النُّذُرِ على العذابِ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ لأنَّ العذابَ تصديقٌ للنُّذُر؛ أي: ذوقوا مِصداقَ نُذُري[3]، فكلُّ عذابٍ وقَعَ كانَ بعدَ نُذُرٍ، وكلُّ نُذُرٍ صُدِّقَ بالعذاب. ففي العطف بينهما تذكيرٌ بالإنذار، وتقريرٌ لاستحقاقِ العقوبة.

مَن ذاق العذابَ نَدمَ على تكذيب النُّذُر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.

بلاغةُ المَجاز بحذفِ المُضاف:

آثارُ الإعراضِ عنِ النُّذُر ذَوقٌ للعذاب

في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ عُطِفَ (نذري) على ﴿عَذَابِي﴾ في الذَّوق، وظاهرُهُ أنَّ النُّذُرَ تُذاقُ، وثمَّة حذفٌ لمُضاف؛ لأنَّ الإنذارَ كلامٌ لا يُذاقُ في الحقيقة. ولذلك قُدِّرَ مضافٌ مَحذوفٌ، تقديره: (فذوقوا عذابي وآثارَ نُذُري)، أو (ونتيجةَ نُذُري)، أو (فذوقوا عذابي وما أنذرتُكم به) [1]. وفائدةُ حَذفِ المُضاف: إشراكُ السّامِع في تقدير المعنى، وإشعارٌ بتمام المُطابقة بين النُّذُر والواقع، فكأنَّ العذابَ والنُّذُرَ شيءٌ واحدٌ، وتأكيدٌ على تحقُّق الوعيد، فيَذوقون عذابًا مُطابِقًا تمامًا لِما أُنذِروا به.

توجيه معنى الفاء ودلالتها:

الطَّمسُ بدايةُ العذاب، والخَسفُ نهايتُه

الفاء في ﴿فَذُوقُواْ﴾ تحتمِلُ أن تكونَ تعقيبًا زمنيًّا، كأنَّ الطَّمسَ حَصَلَ أوَّلًا، ثمَّ ذاقوا عذابًا آخرَ بعدَهُ، وبهذا الاعتبارِ قالَ مَنْ قالَ: إنَّ قومَ لوطٍ عَموا قبلَ أن يُخسَفَ بهم، ويُمطَرَ عليهم[2]. وتحتمِلُ أن تكونَ للتَّرتيب أو التَّعقيب الذِّكريِّ، فتفيدُ حينئذٍ التَّفريعَ السَّببيِّ؛ أي: بسبب هذا الطَّمس، قيل لهم: ذوقوا العذابَ. ومعنى التَّرتيبِ الذِّكريِّ: ذِكْرُ العذاب بعد الطَّمسِ مُجرَّدُ ترتيبٍ في السَّرد، فوقوعُ الثّاني بعدَ الأوَّلِ حاصلٌ في الكلام لا في الزَّمن. وبهذا الاعتبار يكونُ الطَّمسُ نفسُهُ هو العذابَ المَقصودَ، كأنَّه قيل: (فطمَسْنا أعيُنَهم، ثمَّ أمرَهم - تهكُّمًا - بذوقِ ذلك كنوعٍ مِنَ العذاب)، فـ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي﴾ هو بيانٌ لِما حَصَلَ لهم مِنَ الطَّمس، لا أمرٌ جديدٌ[3].

نوع الواو ودلالتها:

الطَّمسُ مُقدِّمةُ الهلاكِ العامِّ المُصبِحِ عليهم

جملة: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ عَطفٌ على ما قبلَها ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾، فالواو عاطفة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 206.
(2) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 2/ 209.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.

تفيدُ الجمعَ بين عقوبةٍ عاجلةٍ خاصَّةٍ (طَمسُ الأعين) وعقوبةٍ عامَّةٍ قاصِمةٍ (العذابُ المُستقرُّ صباحًا)، فيجوز أن يكونَ طَمسُ الأعيُن وقَعَ ليلًا عند محاولة الفاحِشة، ثمَّ أعقبَهُ عذابُ الصُّبح، فذَكَرَ العذابَين مَعطوفَين؛ لِبيان تتابُع النَّقمة وتنوُّعِها، فكان الطَّمسُ مُقدِّمةً للهلاك العامِّ صباحًا.

نُكتةُ تقييدِ الفِعلِ بالظَّرف:

شرُّ البلاء ما يَقعُ في وقت السُّكون والرَّخاء

تعليقُ فعلِ التَّصبيحِ بظرف الإبكار في قوله: ﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذابَ جاءَهم باكرًا أوَّلَ الصَّباح، فالقيدُ الظَّرفيُّ تخصيصٌ لوقتِ الصَّباح، وهو الجزءُ الباكرُ منه (أوّلُ النَّهار حيث يَخرجُ أوَّلُ الضَّوء من عُمق الظَّلام ثمَّ يَسترسِلُ مُستمرًّا ومُتزايدًا)[1]، وهذه الباكورةُ الصَّباحيَّةُ مُمتدَّةٌ إلى وقت شروق الشَّمس حيث قال الله عنهم: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجر: 73]، فوقتُ الإشراق هو عُنفوانُ التَّبكير حين كانَتِ العقوبةُ عليهم أشدَّ[2].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿بُكۡرَةً﴾:

بُكرةُ النُّهوضِ صارَت صباحَ العذاب والهلاك

تنكيرُ ﴿بُكۡرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٌ مُّسۡتَقِرٌّ﴾؛ للإطلاق وعدم التَّعيين؛ أي: في بُكرةٍ ما مِنَ البُكَر الّتي هي أوَّلُ النَّهار، نَزَلَ بهم العَذابُ، وهذا الإبهامُ يزيدُ في التَّهويل؛ لأنَّ العَذابَ فاجأهُم في وقتٍ مُبكِّرٍ لم يَحتسِبوه. وفي التَّنكير إشعارٌ بالتَّقليل، كأنَّها بُكرةٌ واحدةٌ لا تتكرَّرُ، لكنَّها كانَت كافيةً لإنهاءِ وجودِهم، وفيه تصويرٌ لِسُرعة الأخذِ الإلهيِّ وبَطشِه[3].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾:

إبهامُ العذاب أوَّلًا لِتهويله، ثمَّ وصفُهُ بالاستقرار لتأكيدِ دَوامِه وشدَّته

نُكِّرَ لفظُ ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٌ مُّسۡتَقِرٌّ﴾؛ لإفادة التَّهويل والتَّفخيم؛ أي: عذابٌ عظيمُ الشّأن لا

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بكر).
(2) السّعديّ، تفسير السّعديّ، ص: 827.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 333.

يوصَفُ. ويَلزَمُ عن ذلك التَّفجيعُ والمُباغَتةُ، كأنَّهم فوجِئوا بعذابٍ مَجهولِ الكيفيَّةِ والقدْرِ، فيخافُ منه السّامِعُ بمُجرَّد إطلاقِه، ثمَّ جاء الوصفُ بـ ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ ليزيدَ المَعنى وضوحًا، كأنَّه قيل: ليس عذابًا عابرًا، بل عذابٌ دائمٌ لا انفكاكَ منه. فالآيةُ جمعَت بين الإبهام أوّلًا بالتَّنكير لِتهويل المَوقِف، ثمَّ الإيضاحِ ثانيًا بالوصف ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ لبيان شدَّتِه ودوامِه.

دلالةُ وصفِ العذاب بـ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾:

شرُّ العذاب ما استقرَّ، وشرُّ البلاءِ ما طال

وَصْفُ العذابِ بلفظ ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ يُرشِّحُ أنَّ الطَّمسَ في قوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ لم يكُنْ نهايةَ العذاب، بل بدايتَه، وأنَّه قد أعقبَهُ عذابٌ آخرُ استقرَّ بهم، وثَبتَ عليهم. فالوصفُ بـ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ يُشعِرُ بأنَّ الطَّمسَ كان مَدخَلًا للعذاب الحقيقيِّ، لا مُنتهاه. وفيه أيضًا تهويلٌ للعاقبة، كأنَّ الطَّمسَ عقوبةٌ على مُحاولةِ الإيذاء، ثمَّ جاءَهُم بعدَهُ عذابٌ لا يَرتفعُ[1].

فائدة تَكرار قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾:

توسيعُ فئة الخطاب يقتضي التَّكرار

قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يُعَدُّ تكريرًا خاليًا مِنَ الفائدة[2]، فالجملةُ الأولى كانَت في سياق طَمس العيون، وهو عذابٌ اختُصَّ بمَن راودَ لوطًا عن ضيفه، كما في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾، ثمّ قيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ أي: أنتمُ الّذين طُمِسَت أعينُكُم. أمّا الجملةُ الثّانيةُ ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فهي بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾، وهو عذابٌ أصابَ عمومَ قومِ لوطٍ[3]. وفائدةُ الإعلام بما قيلَ لهم من قوله: ﴿فَذُوقُواْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 207.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 144.

عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في المَوضِعين: أن يتجدَّدَ عند استماعِ كلِّ نبأٍ من ذلك ادِّكارٌ لهم، واتِّعاظٌ، وإيقاظٌ؛ استيفاءً لحقِّ التّذكير القرآنيِّ[1].

عِلَّةُ عدمِ ذِكرِ جملة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾:

حين تتكفَّلُ الأحداثُ بالإفهام، فلا حاجةَ للسُّؤال والتَّقرير

لم يُذكَرْ في قصَّة لوطٍ ﷺ جملة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كما ذُكِرت في سياق قصَّة قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ؛ لأنَّ ذِكرَ العذاب في قصَّة قوم لوطٍ جاء مُفعَمًا بالتَّنكيل والتَّفصيل الكافي، فذُكِرَت المُراودةُ الشَّنيعةُ، ثمَّ طَمسُ العيون فجأةً، ثمَّ العذابُ المُستقرُّ الّذي جاءَهُم بُكرةً، ثمَّ خُتِمَ الأمرُ بقولٍ موجِعٍ: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرَّتين، فكان هذا أشدَّ إفهامًا للمَقام وأقوى تهديدًا من سؤال التّقرير: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾؛ لأنَّ الواقِعَ المَحكيَّ في القصَّة كافٍ في الإفهام والتَّهويل[2]، وكأنَّما قيل: لا حاجةَ إلى التَّقريرِ بعد هذا التَّنكيل!.

نُكتةُ تكرار جملة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾:

الغفلاتُ المُتجدِّدةُ تَستوجِبُ تَكريرًا مُتجدِّدًا

كُرِّر قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بعد استيفاء قصَّة قوم لوطٍ، وكما كان بعد كلِّ قصَّةٍ؛ إشعارًا بأنَّ تكذيبَ كلِّ رسولٍ مُقتضٍ لنزولِ العذاب، واستماعَ كلِّ قصَّةٍ مُستدعٍ للادِّكار والاتِّعاظ، واستئنافًا للتَّنبيه والاتِّعاظ؛ لِئلَّا يَغلِبَهُمُ السَّهوُ والغَفلَةُ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والإطلاقُ والبَعثُ:

الإطلاقُ بعد قيدٍ، والإرسالُ أعمُّ، والبَعثُ فيه استثارةٌ مُتواليةٌ

الإرسالُ: أصلُ الرِّسلِ: الانبعاثُ على التُّؤَدَة؛ أي: إطلاقُ الشَّيءِ وإفلاتُهُ بيُسْرٍ وعدمِ عجَلَة. وتصوِّرَ منه تارةً الرِّفقُ، فقيل: على رِسْلِكَ، إذا أمَرْتَهُ بالرِّفق، وتارةً الانبعاثُ فاشتُقَّ منه الرَّسولُ[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 207.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 207.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 167.
(4) الرّاغب، المفردات: (رسل).

وأمّا الإطلاقُ فأصلُ (طلق) يدلُّ على التَّخلية والإرسال[1]. والإطلاقُ: هو انعتاقُ الشَّيءِ ممّا كان يُقيِّدُه. ومنه الطَّلاقُ لغةً: وهو التَّخليةُ مِنَ الوِثاق، فمتى ذُكِرَ القيْدُ يُقال: أطلقتُ، ولا يُقالُ أرسلتُ. ومنه: أطلَقتُ البعيرَ من عِقاله[2]، إذا فكَكْته عنه، فأُرْسِل، وكأنَّ الإرسالَ هو استمرارُ الإطلاق، فالإطلاقُ يُتصوَّرُ معه الإفلاتُ مِنَ القيْد، والإرسالُ هو الانطلاقُ في بحبوحةٍ ويُسْرٍ، وهذا يكونُ بعد تَعوُّدِ الانطلاق من غير قيْدٍ، ولذا فالإرسالُ يأتي بعدَ الإطلاق، ولم يقُل في النَّظم: (أطلقْنا عليهم) اختيارًا للأسهل، فإنَّ الإرسالَ فيه سهولةٌ وخِفَّةٌ، والإطلاقُ فيه صعوبةٌ؛ لكونه حاصِلًا من قَيْد، فإذا امتنعَ الأسهلُ فامتناعُ الأصعبِ أولى وآكَدُ، فاصطفاءُ الإرسال آكَدُ في التَّحدّي والمُمانَعة ونَفاذِ القُدرةِ وهَوانِ إهلاكِهم على الله سبحانَه.

وأمّا البَعثُ فهو إثارةُ الشَّيءِ وتحريكُهُ إلى وِجْهَتِه. فالبَعثُ فيه استفزازٌ واستِثارةٌ، وهو يَشتمِلُ على دفْعٍ مُتوالٍ بقوَّةٍ، فليس فيهِ تُؤَدَةٌ أو تباطؤٌ[3].

الصُّبحُ والفَجرُ والغَداةُ:

الفَجْر: من مادَّة (ف ج ر) الّتي تدلُّ على الشَّقِّ والانفجارِ، وعليه، فمَدلولُه الأساس: هو الانشقاقُ الأوَّلُ للظُّلمة بضياء النَّهار. ووقتُهُ: أوَّلُ ما يبدو مِنَ الضَّوء الصّادقِ المُنتشِرِ الّذي يَشقُّ الظَّلام. فالفَجرُ يَتعلَّقُ بلحظة البدايةِ نفسِها: انفجار النّور. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة: 187][4].

الـفـجـرُ بـدايـةُ الانـبـثـاق، والصُّبحُ وضوحُ النّور وانتشارُه، والغَداةُ هي فترةُ أوَّلِ النَّهار

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلق).
(2) الرّاغب، المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ: (طلق).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعث).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فجر).

والصُّبح: من مادَّة (ص ب ح) الّتي تدلُّ على نور النَّهار، ومنه الصَّباح: أوَّل النَّهار، وهو وقتُ احمرار الأفق بحاجب الشَّمس[1]. فالصُّبحُ أو الصَّباحُ هو الوقتُ الّذي استبانَ فيه النّورُ، وظَهَرَ بعدَ الفَجر[2]. ووقتُه: يمتدُّ مِن انكشاف النّور ووضوحِهِ إلى قُبيل طلوع الشَّمس، وهو غايةُ وقتِ صلاةِ الصُّبح. وقد يُتوسَّعُ فيه، فيقعُ على خلاف وقت المساء عمومًا[3]. وعليه، فـ(الصُّبح) يتعلَّقُ بظهور الضَّوء وانتشاره لا على لحظة الانشقاق[4]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: 81].

والغَداة: من مادَّة (غ د و) تدلُّ على أوَّلِ النَّهار. فتُطلَقُ على أوائل النَّهار عامَّةً بعد انبلاج الصُّبح إلى وقتِ الضُّحى أو إلى قُبيل الزَّوال. فوقتُها أوسعُ مِنَ الفجر والصُّبح؛ لأنَّها تشمَلُ الفترةَ مِنَ الصُّبح إلى ارتفاع النَّهار أو إلى الزَّوال[5]. وقد يدلُّ على مَطلِع النَّهار كلِّه، فيُستعمَلُ في مُقابل العشيِّ (آخر النَّهار) [6]. وقد تُطلَقُ على وقتِ ما بعد الفجر الصّادق إلى شروق الشَّمس[7]. والتَّوفيقُ بينهما: أنَّ الغَداةَ هي أوَّلُ النَّهار بعد الفجر الصّادق؛ أي: اللَّحظة الّتي يبدأُ فيها النّاسُ نشاطَهم، لكنَّ الاستعمالَ توسَّعَ، فصارَتِ الغَداةُ تشمَلُ الصُّبحَ كلَّه إلى آخر الضُّحى. ومن هنا جاءَت أقوالُ المُعجَميّين بين التَّحديد والتَّوسيع. وعليه: فالتَّرتيبُ الزَّمنيُّ لهذه الأوقات: الفجرُ فالصُّبحُ فالغَداةُ؛ فالفجرُ انشقاقُ أوَّلِ ضوءٍ، والصُّبحُ انكشافُ النّورِ حتَّى قُبيل الشَّمس، والغَداةُ تبدأ بعدَ الفجر، وقد تمتدُّ حتَّى الضُّحى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (صبح).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صبح).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صبح).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صبح).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (غدو).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غدو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (غدو).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"